الفصل الثالث

3

دراسة للزمن في "نزيف الحجر"

لإبراهيم الكوني[1]

حكاية رواية نزيف الحجر:

تمثل رواية نزيف الحجر ما يمكن أن نسميه بالسيرة ذات الطابع الديني، حيث تنتهي أحداث الرواية المركزية بقيمة الجزاء، الذي يكون في صورة لعنة تطال كل من حارب الودان، كما ترسم في الوقت نفسه قصة قابيل الشمالي، في مقابل "أسوف" و تتكون الرواية من مجموعة من الحكايات التي يفصل بينها زمن طويل جداً، ومن الممكن أن نسمي هذه الحكايات بالسير، باعتبارها تحكي غالبا سيرة صراع بين فواعل. هذه السير عددها سبع سير، تبدأ بقصة الصراع بين الفضاءات المكانية قبل ظهور الإنسان، حيث تقدم على لسان والد "اسوف" بينما السيرة السابعة تمثل الحدث المركزي، وتؤطر الخطاب الكلي للرواية، وتتأسس من خلال لقاء أسوف الجنوبي الأسمر عاشق كائن الودان الأسطوري والمتآخي معه، وبين قابيل الشمالي الأبيض القاتل للغزلان وللودان العاشق للدم، والقادم من الشمال ليصطاد أخر ودان في الحمادة، وقبل هذه السيرة نجد سيرة ثانية تقدم كمناص وتحكي عن قصة قابيل وهابيل، وكذلك سيرة ثانية صامتة يقدمها لنا اللوح الحجري الصامت عن تآخي الودان بالإنسان في الزمن القديم، بينما السيرة الرابعة هي سيرة معاناة والد أسوف بينما تحكي القصة الخامسة قصة اسوف وأمه بعد موت الأب وبحثه عن أبيه الذي قتله الودان بعد أن خان العهد وقرر أن يصطاده، ثم نجد قصة أسوف ومحاولته اصطياد الودان وسقوطه في الهاوية ثم خروجه بمساعدة الودان ، ثم موت أمه بعد أن غمرها السيل كما نجد قصة تحوله هو ذاته لودان عندما فر هاربا من جنود

الكابتن الإيطالي "برديللو". وترسم لنا السيرة السابعة قصة قابيل وكيف كانت اللعنة ترافقه منذ بداية حياته، حيث يموت كل من يقدم له عونا، وكيف حدث عهد بين الغزالة وبين خاله لانقاده بحيث تقدم الغزالة حياتها مقابل أن يتآخى قابيل وأبنتها، ثم يكبر قابيل قاتلا ويقوم بمعونة ظابط القاعدة لإبادة الغزلان في الشمال، ونتابع قصة الضابط جون باركر الأمريكي، الذي رافق قابيل في رحلات صيده وتحولات حياته السابقة كما نتابع شيوخ الطرق الصوفية وموقفهم من قضية قتل الودان، ونتابع قابيل وهو يبيد الغزلان في الشمال ويكون أخر من يقتله من الغزلان أخته في الدم التي سبق أن عاهد أهله على عدم قتلها، ويصاب قابيل بنوع من اللوثة في رأسه ويتحرك باحثا بجنون عن الودان، وعندما لا يجده ينطلق للجنوب باحثا عنه ، بحيث يقوم أخر المر بصلب أسوف على النصب الحجري ويكتب الدم بلغة التيفيناغ (لغة الطوارق) نبؤته للأجيال بحيث يتحقق العنوان نزيف الحجر.

قصته مع الودان تنتهي بقيمة الجزاء النهائي. السير تحكي كل واحدة منها قصة صراع، عالم الجنوب وعالم الشمال، تمتد هذه السير السبعة، من زمن قبل وجود الإنسان إلى الزمن الآني، وتتحرك في ذات الفضاءات المكانية، الصحراء الكبرى والجنوب والشمال الليبي، ولقد اختلفت تلك السير في طريقة ظهورها عبر الخطاب من سير وردت كمناص، مثل سيرة (قابيل الأول)، وسير أخرى تمثل الإطار الكلي للخطاب كالسيرة السابعة النهائية التي تؤطر كل الخطاب الروائي التي يرسم فيها لقاء أسوف الجنوبي بقابيل، وتحكي السيرة الأولى على لسان الأب لأسوف، قصة الصراع القديم بين "مساك صطفت" و"مساك ملت"، بينما السيرة الثانية تتحقق عبر المناص الخارجي وهي قصة قتل قابيل لأخوه هابيل (أبناء آدم) عليه السلام، والقصة بهذا الشكل، تمثل المرجع بالنسبة للقصة الرئيسية (السيرة السابعة)، ثم نجد قصة التآخي بين الودان والإنسان كما نتابع مغامرات والد أسوف في الزمن الماضي ومحاولته صيد الودان ونهايته مقتولاً، ثم نتابع قصة أسوف مع أمه وسقوطه في الهاوية عندما حاول قتل الودان، ثم موت أمه منجرفة في السيل، و قصة قابيل الشمالي، واللعنة التي تتابعه منذ صغره وقصته مع الغزالة عندما كان صغيراً، التي قتلها في نهاية الرواية ضمن سعيه المستمر لصيد الغزلان، كما نتابع قصة جون باركر الأمريكي الذي رافق قابيل في رحلات صيده وتحولات حياته السابقة كما نتابع شيوخ الطرق الصوفية وموقفهم من قضية قتل الودان. في أخر

الرواية ينطلق قابيل ورفيقه للجنوب حيث يجدون أسوف وهناك بعد أن فقدا الأمل في الحصول على لحم الودان، يقرر قابيل أن يقتل أسوف. ويقوم بصلبه أمام النصب ليعيد أسوف بحادثة الصلب الرمزي، للصحراء من خلال عودة "قابيل" في روح شمالي، يعيد لها وثنها المتكلم وودانها المقدس وتحل البركة التي يرغبها الراوي وخلفه الروائي، كما أن هذه الرمال وحسب الرموز المبثوثة في النص تمتلك لوحها المحفوظ المختلف عن اللوح المحفوظ الذي يؤمن به الشمالي، ذلك اللوح وحسب ترميزات الراوي هو رمال الصحراء الصامتة التي أنطقها دم –القربان أسوف– وأنطقها بالوعد المندس منذ أزمنة لتلك الفئة من الناس.

الخطوات العملية لتحليل الحركة الزمنية داخل الرواية:

بغية الدخول وتحديد حركة الزمان وبلاغة الاشتغال الزمني في الرواية من المهم بدايةً إتباع الخطوات التالية التي نراها ضرورية للوصول إلى إدراك جيد لزمنية الخطاب الروائي:

1- تحديد زمن الحكاية وتقسيمه مبدئياً لعدة أقسام حسب الموجود في حكاية الرواية، ويتم ذلك من خلال قراءة العمل الروائي عدة مرات والبحث عن النقاط التاريخية التي تمثل مؤشرات دالة على زمن الحكاية، ثم عمل تصور أولي لمسيرة زمن الحكاية من خلال مفاصل زمنية محددة.

2- تحديد لحظة الصفر روائياً التي يبدأ منها الخطاب لتحديد نوع الاسترجاعات من خلالها.

3- متابعة الخطاب الروائي وعمل تفريغ لحركة الزمن داخل الخطاب الروائي داخل جدول نحدد فيه النقاط التالية:
   أ – المؤشر الأول : رقم النقلة.
   ب– المؤشر الثاني : الفصل أو القسم الذي ينتمي له.
   ج– المؤشر الثالث : زمن الحكاية الذي انتقل إليه الخطاب عبر النقلة.
   د– المؤشر الرابع : نوع النقلة الزمنية.

4- متابعة الخطاب الروائي عبر جدول آخر نستخرج من خلاله ما يلي:
   أ – المدى الزمني الذي تتم في تلك النقلة الحركة داخله (في صورة زمن محدد، إن أمكن

ويتم ذلك عن طريق عمل دراسة لبداية النقلة الزمنية ونهايتها وتحديد مدى تلك النقلة في صورة دقائق أو ساعات أو أيام أو شهور أو سنوات أو غيره.

ب- السعة النصية التي استهلكتها هذه النقلة الزمنية في صورة سطور أو ورقات.

ج- الإيقاع في صورة تحديد لنوع الحركة النصيّة المستخدمة، وهي المشهد والوصف والحذف والتلخيص، وكذلك متابعة السرد هل هو متواتر أو عادي؟.

د- منطق النقلة الزمنية التي نراها أحد أهم نقاط الممارسة الفنية التي يمارسها الروائي عبر راويه، ومدى سلاسة الانتقال.

5- استخراج مستخلصات نهائية من ذلك عن منطق النقلات وعن السرعة والإيقاع وعن نوع الانتقالات الزمنية.

رواية « نزيف الحجر » لـ« إبراهيم الكوني » :

تحكي رواية "نزيف الحجر" لـ"إبراهيم الكوني" قصة "أسوف" ابن الصحراء الجنوبي الذي يعيش في "مساك صطفت"، وتطرح في درامية عالية قصة لقاءه مع "قابيل" الشمالي العاشق للحم الغزلان والودان تطرح من خلال ذلك ما يبدو تكراراً لحكاية قابيل وهابيل القديمة، كما تطرح حقيقة التآخي بين الإنسان والحيوان.

الرواية تستند إلى الماضي البعيد، وتحاول من خلال مناوشتها للقديم طرح رؤية للكون وللحياة من خلال الأسطورة الجنوبية الجديدة المتمثلة في شخصية "أسوف" وحكايته .

الزمن في «نزيف الحجر» :

نبدأ أولاً بتحديد أزمنة الحكاية حيث سنتابع عمليات الترتيب المختلفة ودورها في خلق المعنى:

زمن الحكاية:

تنقسم أزمنة الحكاية في رواية "نزيف الحجر" لسبعة أزمنة تفصل بينها مسافات طويلة جداً، وتبدو كل مرحلة من تلك المراحل الزمنية: كسيرة منفصلة عن باقي السير الأولى، وتحكي عن شخصية مختلفة، وتتجمع كل تلك السير، أو الأحداث في أنها كلها تحكي سيرة

صراع يقع بين طرفين – شمالي جنوبي– غالباً، وتنتهي كل تلك الأحداث، أو السير من حيث المكون البنيوي بمكون الجزاء الذي يأتي كنتاج طبيعي لعلاقات الظلم التي تحيق بذلك الكائن الرمزي (الودان) أو مثيله الأرضي (هابيل قديماً وأسوف حديثاً) كما تُعَبِّر وتحكي عن التآخي الحاصل بين الكاهن والودّان، وبالتالي بين "أسوف" والودّان.

زمن الحكاية الأول: نجده من خلال المقطع التالي:

"انتظر حتى هلّ القمر وحكى له كيف أن الودَّان هو روح الجبال. كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية... جمّدت الجبال في (مساك صطفت) وأوقفت تقدم الرمل العنيد في حدود (مساك ملت). فتحايل الرمل ودخل في روح الغزلان وتحايلت الجبال من جهتها ودخلت في الودَّان. منذ ذلك اليوم أصبح الودان مسكوناً بروح الجبال"[2]. إن السيرة الأولى محكية من قبل الراوي ضمن حوار منقول، عن والد "أسوف" يتشكل من خلالها سيرة ماضوية مندسة ذات منظور شركي – انطلاقاً من تعدد الآلهة في تلك السيرة– التي تعتبر زمنياً الأولى ذلك أنها قبل وجود البشر "لأن الله أنزل على الأرض بلوى أكبر قاتلت الاثنين معاً"[3]. فالسيرة بهذا الشكل تحكي قصة حدثت قبل ظهور الإنسان على الأرض وتطرح جزء من مكون الصراع الذي يعتبر المكون المركزي في الرواية– بين الشمال الجنوب– وذلك على لسان والد "أسوف" الذي يحكيها له.

زمن الحكاية الثاني:

"وحدث إذ كانا في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله، فقال الرب لقابيل: أين هابيل أخوك ؟. فقال: لا أعلم. هل أنا حارس لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى علمت الأرض لا تعود تعطيك قوتها؟ تائهاً وهارباً تكون في الأرض"[4].

إننا في السيرة الثانية نتلقى إعادة لقصة قابيل وهابيل من خلال منقول وضع كمناص في الصفحة الأولى للعمل.

المنقول مأخوذ من (العهد القديم)، إن هذه السيرة تمثل عملية القتل الأولى على الأرض،

ومن خلال الربط بين اسم "قابيل" القديم وبين "قابيل" الآن ، نجد أن هذه السيرة قد أوجدت لغرض توظيفها ضمن بنية الصراع الحاصل داخل الخطاب السردي، ذلك أن "قابيل" الجديد الذي يجدد سيرة "قابيل" الأول، شمالي المنبت والتربية، وستتحول حكايته لتحقق الصورة الكلية التي أرادها راوي الخطاب ومن خلفه الروائي.

زمن الحكاية الثالث:

السيرة الثالثة تحدث قبل عشرة آلاف سنة في زمن إنسان ما قبل التاريخ، سندرسها ونتلمسها من خلال مكونين: مناص أولي موجه لأفاق الخطاب وللنص وذلك المناص عبارة عن أية كريمة من سورة الأنعام – وقبل أن نبدأ نؤكد على وجود خطأ في نقل الآية القرآنية– التي تتحدث حسب ما أراد الروائي "إبراهيم الكوني" عن الأمم الأخرى المتماثلة معنا، المكون الثاني لسيرة التآخي بين الإنسان والحيوان أو ربما بين الجني والحيوان صورة الكاهن "متخندوش" والودان، التي صورت أمامنا في صورة نحتية، يطرح عبر صمتها وانتصابها حقيقة أرادها الراوي، إن هذه الصورة ستتجلى نهائياً في السيرة الأخيرة عندما يقوم "قابيل" بقتل "أسوف" ويكتب بلغة (التيفيناغ) لغة الطوارق ما أراد ذلك النصب الوثني لـ"متخندوش" الكاهن أن يقوله، أن تلك الصخرة وذلك النصب قد شُخِصَا لتوضيح العلاقة التي أوجدها الخطاب بين الإنسان القديم الطارقي صاحب لغة (التيفيناغ) والوثني وبين الودان: "الصخرة العظيمة تحد سلسلة الكهوف وتقف في النهاية كحجر الزاوية، لتواجه الشمس القاسية عبر آلاف السنين، وقد زينت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ، على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الغامض، ويلامس بيده اليمنى الودان الذي يقف بجواره مهيباً، عنيداً، يرفع رأسه، مثله مثل الكاهن، نحو الأفق البعيد، حيث تشرق الشمس وتسكب أشعتها في وجهيهما كل يوم. عبر آلاف السنين، حافظ الكاهن العظيم والودان المقدس على ملامحهما المحفورة، ملامحهما الواضحة، العميقة، الجليلة، الناطقة، في صلب الصخرة الصماء"[5]. إننا نتابع من خلال الراوي، العلاقة الأخوية الحميمة بين الكاهن والودان، ذلك الودان الذي طرح من خلال السيرة الأولى كروح للجبال، و هذا الاتجاه من الكائن الإنسي أو الكاهن للودان يبدو هروباً طبيعيا من الأخ الإنسي، الأخ القاتل.

زمن الحكاية الرابع:

زمن الحكاية الرابع هو الزمن الذي تحدث فيه سيرة والد "أسوف"، وهو في الوقت نفسه زمن تشكل شخصية "أسوف" وانبناءه الداخلي ويمتد هذا الزمن لعقدين من الزمن تقريباً أي منذ منتصف العقد الأول من القرن الماضي (1905م) وحتى بداية العشرينات تقريباً، وهي من حيث المساحة النصية تشكل مسافة جيدة من المساحة النصية، على العكس من السير الرمزية سابقة الذكر التي جاءت كومضات سريعة ربما لاتصل إلى الصفحة أو الصفحتين من حيث سعتها.

يمثل الحدث الرئيسي في هذا الزمن خيانة والد "أسوف" للنذر الذي نذره للودّان في بداية حياته، ذلك الودان الذي أنقذه وهو معلق في الهاوية[6]. نقض النذر وأكل لحم الودان هو وزوجته، ثم بعد فترة، مات ودان أخرٌ وهو يطارده منتحراً[7]، الوالد استمر معذَّباً وشاعراً بالألم، حتى ذهابه في يوم ما لمطاردة الودان و محاولته قتل الودان، فقتله الودان وسقط في الهاوية ولأنه نادم عن قتله فإنه بعد الموت تَوَحَّد بالودّان[8]، الأم كذلك داهمها السيل وماتت، السيل الذي استخدم في روايات "الكوني" كفاعل تطهير للأجساد والأشخاص من الخطايا.

الزمن: منذ بداية القرن الماضي (1900) تقريباً إلى حدود ما بين (1920-1925)، إن والد "أسوف" سيظهر له في اللحظات الحرجة في وجه الودان وذلك عندما يسقط في الهاوية، أي إننا هنا أمام الوالد وقد تحول لمقدس – حسب النص– وذلك لتوبته عن قتل الودان.

قسمنا هذا الزمن لثلاثة أقسام:

أ – زمن طفولة "أسوف"، وتلقيه للتعاليم من والده، وهو نفس زمن العهد بين والد "أسوف" والودّان.

ب– هي المرحلة التي يتحول فيه "أسوف" صبياً حيث يبدأ في اكتشاف المغارات في المناطق المجاورة لسكنه، و مرحلة حركة أسوف بين الرسومات القديمة، وهو زمن التساؤل المستمر من "أسوف" عن مفهوم صيد الودان.

ج– إنه زمن "اسوف" شاباً وهو ينتهي بموت والده بفعل الودان.

زمن الحكاية الخامس:

هذا هو الزمن الذي تحدث فيه السيرة الخامسة، التي تمثل سيرة "أسوف"، وما تعلمه هو شخصياً من تعاليم عبر تجربة السقوط في الهاوية (الرمزية) وإنقاذ الودّان له، حدثت زمنياً بعد وفاة أبيه، و يتضمن هذا الزمن زمن سقوط "أسوف" في هاوية الودان، ثم خروجه كما يتضمن موت أمه وتحوله هو إلى ودّان.

حصلت أحداث هذه السيرة نتاجاً لقيام "أسوف" بمحاولة صيد الودّان الذي جره للسقوط في الهاوية، ثم عند محاولته الخروج من تلك الهاوية بواسطة الصبر – الذي هو كلمة السر للخروج من هاوية الرمز أو هاوية الذات– يتحقق له رؤية الوالد في وجه الودّان، ثم يحدث له بعد الخروج التحول، إن السقوط في الهاوية هو رمز لتطهير "أسوف" من إثم محاولة قتل الودّان رمز الجبال ورمز تلك المنطقة.

إن "أسوف" ذاته سيتوحد مع الودان عند الهرب من الإيطاليين متحولاً من بشري إلى ودّان، ومحققاً من خلال ذلك تكرر ذلك الترابط بين الكاهن "متخندوش" وبين الودّان من جديد[9].

قسّمنا هذا الزمن لثلاثة مراحل أيضاً كما يلي:

أ – "أسوف" مع أمه بعد وفاة أبيه وصورته مسالماً وخجولاً كما ظهر في فصل البنية، إنها المرحلة التي تلت موت الأب وقبل صيده للودّان (يبدو هذا الزمن أقرب ما يكون لنهاية العشرينات).

ب– إنه زمن محاولة "أسوف" صيد الودان وسقوطه في الهاوية الرمزية والواقعية، وهو زمن خروجه منها. ينتهي هذا الزمن بموت الأم.

ج– إنه الزمن الذي يلي موت أم "أسوف" وموت كل قطيعه ورحيله للشمال وحدث تحوله إلى ودان هارباً من رجال الكابتن "برديللو".

زمن الحكاية السادس:

إنه الزمن الذي ولد فيه "قابيل" ويبدو أقرب ما يكون لمنتصف ثلاثينات القرن الماضي، وتبدأ السيرة بمولد "قابيل": "قصته مع اللحم بدأت منذ الرضاعة. مات الأب مطعوناً بالسكين عندما حبلت به أمه، وماتت الأم متأثرة بلدغة أفعى بعد ولادته بأسبوع"[10].

إن "قابيل" سيستمر في التجلي أمامنا من خلال الراوي في الفصل الخاص به وعبر تقنية التلخيص الزمني، ويحكي لنا عن وفاة خالته وزوجها، بعد أن قاموا بإرضاعه دم الغزالة، وتحولت بذلك الغزالة – في تحول خرافي افتراضي– لأخت له نتيجة لعهد قُطع بين الغزالة وخالته وزوجها، القافلة التي أخذته والرجل الذي تبنّاه يدعى آدم، عندما ذهب في أحد رحلاته بعد تبنيه له إلى "كانو"، وعرض أمره على المشعوذين، قال له المشعوذ نبوءة خاصة "من فطم على دم الغزال في الصغر لن يستقيم حتى يشبع من لحم آدم في الكبر" – ونلحظ أننا أمام ما يبدو كاستباق زمني وهو ذات المكون المسمى (دعوى نصية) في السيرة الشعبية[11].

"دهش آدم وصاح بالساحر الزنجي:

– يشبع من لحمي أنا ؟

قال الساحر دون أن يبدو عليه الضيق:

– قلت من لحم آدم ولم أقل من لحمك أنت!

خرج من كوخ الساحر غاضباً. وقصد بعد يومين أشهر العرَّافين. سرد عليه قصة اللقيط من البداية حتى حادثة اللحم النيئ، فأذهله الجواب. قال بصوت واضح:

– يا قابيل يا ابن آدم، لن تشبع من لحم ولن تروى من دم، حتى تأكل من لحم آدم، وتشرب من دم آدم.

أما آدم فتوغل في رحلة تجارية إلى الأدغال.

فمزقته قبائل "يم يم" بالحراب، وقطعته، وأكلت لحمه نيئاً. قبائل "يم يم" مشهورة بحبها للحم الأبيض"[12].

إننا ومن خلال المستقطع السابق نجد أنفسنا في الدعوى النصية لهذه السيرة التي تكررت على لسان ساحر ثم على لسان عراف.

حيث تلقى من خلال عالم بالغيب، وتأتي تفسيراً لحلم أو حدث غريب، وتتعلق بالمستقبل.

"قابيل" سينمو ويترعرع صياداً للغزلان، يبطش بها أينما وجدت، ويساهم بمعونة المستعمر "جون باركر" ضابط القاعدة، في القضاء على آخر غزالة أمامه ونجده في آخر هذه السيرة، أو

المرحلة السادسة يذهب وصديقه مسعود مع الأمريكي "جون باركر" والسائق، ويقتل الغزالة التي تم عهد الأخوَّة بينه وبينها مع خالته التي أصبحت أخته بالدم. يقتلها ويأكل من لحمها وبذلك يحل الجزاء وهو اللعن، أننا بهذا الشكل نرى السيرة السابعة كجزاء محتوم لـ "قابيل" على شناعة فعلته التي يرويها الراوي: "في تلك الليلة، لم يقتل قابيل ابن آدم أخته فقط، ولكنه أكل من لحمها أيضاً" [13].

إن "قابيل" وهو يدور مدمناً فاقداً للحم الغزلان، سيذهب تجاه الجنوب ليحدث الصدام وتبدأ السيرة السابعة.

قسمنا هذا الزمن لأربعة أقسام:

أ- زمن مولد "قابيل" والعهد القديم الذي تمّ بين خالته وبين الغزالة وزمن الأحداث التي صاحبت مولده. أنه تقريباً في ثلاثينات القرن الماضي.

ب- زمن حضور موظفي الآثار ومعهم الخبير الإيطالي لـ "أسوف" في الجنوب، إنها مرحلة تسبق السيرة السابعة بعدة سنوات تقريباً، وهو زمن نمو وترعرع "قابيل" صياداً للغزلان وهو الزمن نفسه الذي يحكي فيه "جون باركر" سيرته القديمة في بلاده، إنها المرحلة التي تسبق التحول الكبير في طريقة صيد "قابيل" من خلال حصوله على بندقية الخرطوش.

ج- إنه زمن حضور السياح وعاشقي الآثار لـ "أسوف"، وهو الزمن نفسه الذي يقوم فيه "قابيل" بالتوسع في صيد الودّان من خلال البندقية التي أهداها له "جون باركر"، يستمر هذا الزمن حتى القسم الأخير في هذه السيرة وهو الذي يبدأ بقتل "قابيل" لأخته الغزالة.

د- يبدأ بقتل "قابيل" لأخته الغزالة ويستمر حتى لحظة لقاءه بـ"أسوف".

زمن الحكاية السابع:

الزمن السابع أو الأخير هو زمن الحكاية المركزية وهي قصة لقاء "أسوف" بـ "قابيل"، "قابيل" الذي جاء إلى الجنوب تتبعه اللعنة حسب الرواية - بسبب قتله لأخته الغزالة واكله من لحمها - ثم يقتل "أسوف"، القصة تحدث في ستينات القرن الماضي زمن وجود المحتل الأمريكي في القاعدة، ويستمر هذا الزمن لعدة أيام فقط.

ملخص عن زمن الحكاية في الرواية:

كما رأينا مما سبق نحن أمام مجموعتين من أزمنة الحكاية، النوع الأول: يشتمل على ثلاثة أزمنة حكاية بعيدة جداً (الأول والثاني والثالث)، التي جاءت كما نرى لتطرح البعد الخفي للرواية ولتوجه الخطاب غالباً انطلاقاً من ماضويتها وتجذرها في الوجود وجاءت كلها في صورة مناص خارجي أو ومضة سريعة، وجاءت لتحقق أمامنا نوعين من التعاليم: (التعاليم الدينية الإسلامية مختلطة بالوثنية) من خلال والد "أسوف" داخل الخطاب، أو من خلال المناصات التي تحيلنا لرغبة الروائي ذاته، الذي جاء بقصة "قابيل" و"هابيل" التي تمثل كما سنرى أحد ثلاثة جذور مركزية ضمن بنية الحدث في الرواية، التي تنقسم لما يلي:

1- قتل "قابيل" للغزالة أخته وكذلك لـ"أسوف" الذي يمثل تكراراً لفعل قتل "قابيل" القديم لـ"هابيل" أخيه.

2- اختيار "أسوف" لـ"الودّان" وتحوله ل"ودّان" ثم لنهاية ذلك التحول وهو يكرر بذلك تلك السيرة الصامتة التي كتبتها الصحراء من خلال صورة الكاهن و"الودان" عند صخرة "متخندوش".

3- صلب "قابيل" لـ"أسوف" على النصب الحجري، "أسوف" الذي طرح عبر الخطاب – ومن خلال الحوار الحاصل بين الشيخ القادري و"جون باركر"– مفاهيماً تشابه مفاهيم النصاري عن المسيح في ثالوثهم. أي نحن أمام صلب جديد لأسطورة الصحراء "أسوف".

النوع الثاني: من أزمنة الحكاية هي أزمنة قريبة نسبياً منذ بداية هذا القرن وحتى الستينات منه هي كما سبق أن أسلفنا تطرح حالة تكرار لحادثة قتل "قابيل" و"هابيل"، وكذلك تكرار لحالة التوحد بين الإنسي و الودّان كما توحد معه الجني سابقاً أو الكاهن[14].

زمن الخطاب وحركة الزمن في الرواية:

قام الروائي في "نزيف الحجر" بجعل زمن السيرة السابعة هو الزمن الإطار لكل الأحداث بدأ النص من خلال المناص الذي حددناه كزمن ثان الذي جاء ليعلن على أن الحدث المركزي في الرواية هو قتل الأخ لأخيه، ثم بدأ الخطاب من خلال زمن الحكاية السابع وهو

الزمن الإطاري الذي يؤطر الخطاب السردي، وأخذ الراوي يفتت الحدث المركزي الرئيسي وهو: (لقاء "قابيل" بـ"أسوف") وهو يعود من خلال الاسترجاع الخارجي للماضي القريب.

الحدث الأول في الرواية الذي ننطلق منه في تحديد لحظة الصفر زمنياً هي تلك اللحظة التي كان فيها "أسوف" يتوجه بصلاته للقبلة وتحول مخطئاً نحو الصنم وشعر بمباركة الوثن له، إذن نحن في عملية تحول لـ"أسوف" إلى الوثنية، في الوقت ذاته لقاءه و الودّان المتوحد بالجني ومعها لقاء "قابيل" القادم من الشمال (سمع هدير المحرك البعيد، فقرر أن يسرع ....)[15]. إن اختيار هذه اللحظة كبداية للخطاب السردي للرواية، يدل على أهمية هذا الحدث، الأمر الذي سيجعله مدخل ومبتدأ الرواية، ولقد قمنا بعمل جدولين قمنا من خلالهما بتطبيق النصائح المبدئية السابقة التي تمثل كيفية الانتقال من نظرية الخطاب كنظرية لعملية التقطيع واستخراج النتائج.

الجدول الأول :لبيانات الترتيب الزمني لزمن الخطاب:

الرقم	الصفحة	فقرة	رقم الحكاية	نوع النقلة الزمنية	ملاحظات
1	5		2	خارج الخطاب	مناص أول
2	8-7	1	7	لحظة الصفر روائياً	البداية من خلال هذه السيرة الإطارية وهي الأخيرة.
3	8		3	استرجاع خارجي	سيرة صامتة.
4	9-8		6 ج	استرجاع خارجي	عن سياح الآثار.
5	12-9		4 ب	استرجاع خارجي	"أسوف" والرسومات ترميز لعلاقة الجن والإنس.
6	13-13	2	7	عودة للحظة الصفر	عودة للسيرة الإطارية.

الرقم	الصفحة	فصل رقم	زمن الحكاية	نوع النقلة الزمنية	ملاحظات
7	15-13		6 ب	استرجاع خارجي	"أسوف" وعمال الآثار (تعظيم النصب من خلال السواح).
8	**17**	**3**	**7**	**عودة للزمن الإطاري**	**لقاء أول بين "أسوف" و"قابيل" (إحساس "أسوف" بالقلب).**
9	23	4	4 أ	استرجاع خارجي	تعاليم "أسوف" في طفولته (القلب).
10	26		1	استرجاع خارجي	سيرة محكية عبر تعاليم الوالد (السيرة الأولى).
11	27-27		4 أ	استرجاع خارجي	عودة للأب ومفهومه عن الناس.
12	31	5	4 ب	استرجاع خارجي	تلخيص كمدخل لموت الأب.
13	34-31		4 ج	استرجاع خارجي	موت الوالد وبداية زمن جديد.
14	39-37	6	5 أ	استرجاع خارجي	مسالمة "أسوف" / البنية.
15	**43-41**	**7**	**7**	**عودة للزمن الإطاري**	**لقاء "أسوف" و"قابيل" / شبح الهملايا.**
16	45	8	5 ب	استرجاع خارجي	بدايات فكرة الصيد.
17	49-45		4 أ	استرجاع خارجي	تعاليم الأب عن الودان / خيانة العهد مع الودان.
18	53	9	4 ج	استرجاع خارجي	تذكير بشيء (سطر).
19	63-53		5ب	استرجاع خارجي	صيد الودان السقوط في الهاوية (استفزاز المروي لهم عبر التماهي مع البعد الأعمق للشخصية "أسوف") وطرح (مناص) صوفي كخلفية لهذا الحدث بحيث يبدو الحادث رمزياً محيلاً لواقع آخر.

الرقم	الصفحة	فصل رقم	زمن الحكاية	نوع النقلة الزمنية	ملاحظات
20	70-65	10	5ب	استرجاع خارجي	كلمة السر، أو حركة الخطاب على مستويين، مستوى ظاهر قريب ومستوى رمزي خفي.
21	72-71	11	5ب	استرجاع خارجي	العظاية أو حالة بين الموت والحياة.
22	75-75	12	5ج	استرجاع خارجي	النص الخفي يرمز لتحوله إلى (ودان مقدس).
23	77-77	13	5ج	استرجاع خارجي	بداية زمن جديد.
24	78-77		5ب	استرجاع خارجي	موت الأم أو حالة تطهير بواسطة السيل ونهاية زمن.
25	81-79	14	5ج	استرجاع خارجي	موت القطيع وخروجه من "مساك صطفت".
26	84-83	15	5 ج	استرجاع خارجي	اعتقال "أسوف" وظهور كرامته واحتفال شيوخ الطرق به.
27	85	16	7	عودة للسيرة الإطارية	العودة للسيرة الإطارية، "قابيل" يصر على أخذ "أسوف" معه للبحث عن الودان.
28	86-85		6 ب	استرجاع خارجي	مقارنة بين نصراني (الآثار) و"رديللو"، أثناء تواجده في السيارة معهم.
29	**89-87**		**7**	**عودة للسيرة الإطارية**	**"أسوف" صحبة "قابيل".**
30	93-91	17	6 أ	استرجاع خارجي	قصة "قابيل" (اللقيط) واللعنة التي تصاحبه.
31	96-95	18	6 ب	استرجاع خارجي	شباب "قابيل".
32	98-96		6 ج	استرجاع خارجي	استخدام الآلة (اللاندروفر) في صيد الودّان.

الرقم	الصفحة	فصل رقم	زمن الحكاية	نوع النقلة الزمنية	ملاحظات
33	101-99	19	6 ج	استرجاع خارجي	"قابيل" و"جون باركر"، واستخدام بندقية الخرطوش.
34	**105**	**20**	**7**	**عودة للزمن الإطاري**	**"أسوف" و"قابيل" بداية التوتر.**
35	110-109	21	6 د	استرجاع خارجي	الغزالة تحكي لابنتها عن العهد القديم وعن أخوّتها للإنسان.
36	113-110		6 أ	استرجاع خارجي	قصة الغزالة والعهد.
37	115	22	6 ب	استرجاع خارجي	قصة "جون باركر" (تأسيس لقضية صلب "أسوف" بما يشابه قضية صلب المسيح).
38	119-117		6 ب	استرجاع خارجي	"جون باركر" وشيوخ الصوفية
39	121-119		6 ج	استرجاع خارجي	"جون باركر" و"أسوف".
40	123	23	6 د	استرجاع خارجي	قتل الأخت الغزالة.
41	135-131	24	6 د	استرجاع خارجي	أكل "قابيل" للودان.
42	139-137	25	6 د	استرجاع خارجي	حالة "قابيل" بعد أكل الودان.
43	**147-143**	**26**	**7**	**عودة للسيرة الإطارية**	**"قابيل" يذبح "أسوف" على النصب الحجري، تحقق الصلب لـ"أسوف" أسطورة الصحراء.**

الجدول الثاني: يمثل تنظيما لبيانات المدى والسعة والإيقاع وكذلك منطق النقلة الزمنية:

رقم النقلة	رقم الصفحة	المدى	السعة (صفحة)	الإيقاع	منطق النقلة الزمنية
1	5		0.25		**مناص أول.**
2	8-7	0.5 س	2	وصف مع تواتر	بداية الرواية.
3	8	آلاف السنين	0.25	وصف مع تواتر	الانتقال من خلال وعي "أسوف" الهائم بفضائه المكاني حباً، ومن خلال صورة النُصب.
4	9-8	عدة سنوات	0.5	تواتر مع مشهد	عبر نهج النفي يتم الانتقال "بالطبع لم يدر في خلد "أسوف" آنذاك..."[16].
5	12-9	عدة أيام	2	مشهد ثم سرد متواتر	من اكتشافات "أسوف" الخاصة للمفاهيم التي زرعتها الأسرة لديه وللمروي لهم بعده.
6	13-13	0.5 س	1	مشهد	عودة للسيرة الإطارية للسرد (سيرة اللقاء).
7	15-13	عدة سنوات	2	مشهد ثم سرد متواتر	من خلال صوت سيارة القادمين "أسوف" يتذكر زيارة عمال الآثار في الماضي.
8	17	0.5 س	6	مشهد (حوار)	عودة للسيرة الإطارية للسرد، وبداية تصاعد الزمن قليلاً.
9	23	عدة سنوات	3	سرد متواتر ونقل الراوي لحوار الأب	بداية فصل، ترديد المفاهيم التي علمها الأب لـ"أسوف" من قبل السارد ثم الدخول لسرد طرائق تربيته ومكوناته في الماضي.
10	26	آلاف السنين	0.5	تلخيص	الراوي يحكي لنا ما حكاه الأب لـ"أسوف" عند زمن محدد(تأطير)[17] وننتقل منه للقصة القديمة.

رقم النقلة	رقم الصفحة	المدى	السعة (صفحة)	الإيقاع	منطق النقلة الزمنية
11	27-27	ساعة تقريباً	0.5	مشهد ونقل لحوار	انتقال عبر تحديد زمني "في تلك الليلة " وبخصوص نفس موضوع قصة الحرب القديمة.
12	31	عدة أيام	0.2	تلخيص	بداية الفصل واشتغال خطابي من الراوي كأنه في حوار مستمر مع المروي لهم من خلال كلمة: "ولكن التمتع بنعيم العزلة في الصحراء لم يدم"[18].
13	34-31	عدة أيام	3	مشهد مع تلخيص	لقطة درامية وخوف على الوالد يتم من خلاله امتداد الزمن بطريقة أخرى.
14	39-37	عدة أسابيع	2	تلخيص مع مشهد	نفس الإيحاء بالتواصل من الراوي عبر النقط ثم الحديث عن تجربة الودان ثم الكف والحديث عن موضوع آخر.
15	43-41	نصف ساعة	3	مشهد مع حوار	ترهين حدث بزمن معين ثم الدخول للسرد : "لم يعد الرفيقان إلا في صباح اليوم التالي"[19].
16	45		0.25	تلخيص	نهج التبرير من الراوي في بداية الفصل، التبرير لما تفكر فيه الشخصية وعبر ثقافتها وتكوينها.
17	49-45	عدة سنوات	4	تواتر أحداث مع مشاهد صامتة غالباً	الانتقال من وعي "أسوف" لوالده سابقاً والحديث عن الذي يحلو له "يحلو للمرحوم أن يقول...."[20].
18	53	عدة سنوات	0.05	تلخيص	الانتقال من خلال بداية الفصل وترهين حدث بزمن حدث قديم: "ولما كسر الحيوان المسكون رقبة والده، تذكر كلام والدته".

رقم النقلة	رقم الصفحة	المدى	السعة (صفحة)	الإيقاع	منطق النقلة الزمنية
19	63-53	يوم ونصف ليلة	11	مشهد يبنيه الراوي ووصف فيه أسطرة	الانتقال بترهين زمن حدث بفارق زمني عن حدث آخر: "حدث ذلك بعد وفاة العجوز بسنوات"[21]، ثم البدء في الدراما التي كان الراوي – حتى هذه اللحظة النصية– يجهز المروي لهم لها.
20	70-65	نصف ليلة	6	مشهد ووصف	الدخول عبر ذات "أسوف" ووعيه ومن خلال فصل جديد، مع نفس الدراما المتعالية للحدث السابق وهو حدث السقوط في الهاوية وحالة التأمل هناك.
21	72-71	يوم وليلة	2	مشهد ووصف	الاستمرار في نفس المشهد مع الفصل الجديد والبداية بتحديد زمني (ترهين) : "أفاق مع الأصيل. كوته الشمس، فصحا من الغيبوبة"[22].
22	75-75	عدة عقود بقية (عمر أسوف)	1	تواتر	ترهين حدث بحدث :"بعدها ..عاف اللحم كل اللحوم. لاحظ هذا التغير أول مرة ...."[23].
23	77-77	عدة شهور	0.25	تلخيص	نقلة مع استمرار سياق الخطاب السابق عن التحول.
24	78-77	عدة أيام	2	تلخيص و مشهد	ترهين حدث بحدث مع إشارة زمنية طبيعية من خلال المطر والجفاف: "قبل الجفاف أغرقت السماء أودية الصحراء بالسيول .."[24].

رقم النقلة	رقم الصفحة	المدى	السعة (صفحة)	الإيقاع	منطق النقلة الزمنية
25	81-79	أربع سنوات	3	تلخيص يتناوب مع مشهد	الاستمرار في ذات السياق الخطابي من الراوي عبر الحديث المستمر عن السيل: "وقد داهمهم السيل مستعملاً سلاحه الأبدي نفسه: الغدر"[25].
26	84-83	عدة شهور	1.5	تلخيص مع مشهد وتواتر	الانتقال عبر ترهين حدث بحدث :" اعتقله رجال الكابتن "بورديللو" في اليوم الأول لدخوله الواحة"[26].
27	85	نصف ساعة	0.5	مشهد	بداية فصل وعودة لزمن الحكاية الإطاري.
28	86-85	نصف يوم	1.5	مشهد	الانتقال عبر حدث مشابه (ركوب السيارة): "هذه ثاني مرة يركب فيها السيارة. المرة الأولى كانت برفقة الخبير الأجنبي ..."[27].
29	89-87	ساعة	2.5	مشهد وحوار	العودة من خلال العودة للزمن الإطاري وتحديد موضع مكاني ضمن الرحلة في السيارة.
30	93-91	سنة واحدة	2	تلخيص	تحديد حدوث حدث بزمن محدد (ترهين): قصته مع اللحم بدأت منذ الرضاعة . مات الأب ..."[28].
31	96-95	عقدين من الزمن	2	تلخيص و حذف و تواتر	الانتقال عبر استمرار الراوي في الحديث عن أهل "يم يم" المتوحشين والمشهورين ثم الدخول لشخصية تمثل نفس أفعال أهل "يم يم" وهو قابيل.
32	98-96	3 سنوات	1.5	تلخيص	الانتقال عبر النفي ضمن خطاب الراوي كما يلي : "لم تدخل سيارات اللا ندروفر ولا بنادق الخرطوش حرم الصحراء بعد ..."[29].

رقم النقلة	رقم الصفحة	المدى	السعة (صفحة)	الإيقاع	منطق النقلة الزمنية
33	101-99		2	تلخيص	الانتقال عبر نهج الحكي في السيرة، من خلال لفظ (ثم) التي يليها نقط، مما يؤشر لمرور زمن ثم نجد (ثم) أخرى ونجد حدث البندقية الجديدة.
34	105	عدة ساعات	4	مشهد وحوار	البداية بالحدث ثم ترهين زمنه كمدخل للانتقال من زمن لآخر : "العراك نشب فجأة، فبعد عودتهم من رحلة الاستطلاع ..."[30].
35	110-109	عدة أيام	1.5	تواتر ومشهد	سرد لخبر الغزالة.
36	113-110	ساعات	3.5	مشهد و حوار	الانتقال عبر ترهين زمني لحكي قصة العهد: "ففي ربيع أحد الأعوام البعيدة ..."[31].
37	116 -115	عدة سنوات ربما (عقد) من الزمن	1.5	تلخيص وحذف	الانتقال عبر بداية الفصل وتحديد شخصية مناط للسرد للانتقال لها ولزمنها.
38	119-117	عدة سنوات	2	مشهد وحذف	الانتقال عبر تذكير النص له: "النص الصوفي المغمور ذكر بالهذيان كان سبباً في... وقرر أن يكتشف السر بنفسه".
39	121-119	ساعات	2	مشهد وحوار	الانتقال عبر تذكر الشخصية لشيء ما.
40	123	يوم وليلة	7.5	مشهد وحوار	بداية النقلة بتحديد طبيعي لزمن بالحديث عن الأصيل وعما يلوح في الأفق، والانتهاء به أيضاً من خلال :"في تلك الليلة لم يقتل "قابيل آدم" أخته فقط ولكنه أكل لحمها أيضاً".

رقم النقلة	رقم الصفحة	المدى	السعة (صفحة)	الإيقاع	منطق النقلة الزمنية
41	135-131	ليلة	5	مشهد وحوار	الانتقال عبر حدث يحصل مرة واحدة: "ذاق لحم الودان مرة واحدة. جاء بالشريحة تجار القوافل..."[32].
42	139-137	يوم وليلة	3	مشهد وتلخيص	الانتقال عبر ما يظنه "قابيل" بخصوص جمال الغزلان لسرد ما غير ذلك الظن من رؤيته للودّان والانتقال معها.
43	147-143	ساعة تقريباً	4.5	مشهد وحوار	بداية النقلة بترهين زمني جميل من خلال (الساعة الطبيعية): "تعجرفت الشمس بشعاعها مع الأصيل..."[33].

إن لحظة الصفر روائياً، أو اللحظة التي تحتسب عندها وجهة الخطاب الزمنية هو الزمن السابع، ونلاحظ من المقارنة السابقة؛ أنه باستثناء الزمن الثاني الذي جاء كمناص، فإن غالب أزمنة الحكاية الأخرى تأتي عن طريق الاسترجاع الخارجي، وبذلك ندرك أن الشخصيات منذ وضعت في لحظة الفعل أمامنا، لم تترك لها فرصة لاسترجاع قريب.

سوف نمضي بعد تقطيعنا للخطاب الروائي إلى تقسيم زمن الخطاب الروائي إلى مقاطع رئيسية، وذلك تسهيلاً للتعامل معها. وسنبحث - من خلال وعينا بالقضايا المركزية التي تحكم مفاصل الخطاب - عن تلك المفاصل أو المقاطع التي تقسم الخطاب الروائي.

المرحلة الأولى من الخطاب:

من النقلة (1) إلى النقلة رقم (8) في الجدولين السابقين وأزمنة الحكاية التي تتالى فيه هي ما يلي: (2 - 7 - 3 - 6ج - 4ب - 7 - 6ب - 7).

إن المجموعة الأولى كما نرى تتأسس عبر انتقالات زمنية يؤطرها الحاضر أو زمن الحكاية السابعة، ويتم فيها كما نرى التحرك وبسرعة وداخل سعة نصية قصيرة من الماضي إلى الحاضر. ولنلاحظ أننا وضعنا الزمن الأول - وهو الزمن الثاني في ترتيب الحكاية- داخل قوسين لكي

ننبه إلى أنه في السرديات لا يدخل هذا المناص داخل بنية تحليل الخطاب، ولكن لشدة فعله داخل الخطاب ولتأثيره الحيوي كما سنرى عندما نتابع بنية حكاية الرواية، فإننا قمنا باعتباره أحد المكونات الخطابية.

في هذه المجموعة سنجد عدسة السرد تبطئ عند موضعين هما: النقلة الأولى حيث نحن مع بداية السرد ونجد أمامنا "أسوف" يتأسس كشخصية عابدة - شخصية لاهوتية بشكل ما- ثم بعد قليل عندما نعود لزمن الحكاية (4ج) حيث يتم رسم صورة لحياة "أسوف" مع والديه. فيما قام الراوي وعبر نهج التواتر بطرح زمن طويل جداً بشكل متكرر عبر منطق التواتر "عبر آلاف السنين حافظ الكاهن ...." [34].

إن صورة الكاهن السابقة تمَّ الانتقال إليها من خلال قوى الوصف التي يتقنها "إبراهيم الكوني" وصف يعكس وعي "أسوف" العميق وإحساسه، أي إننا أمام تسريع عبر التواتر وتبطئة عبر الوصف، وسنجد أنفسنا باستمرار عبر السرد نتابع اكتشافات "أسوف" للأشياء عبر تجربته الشخصية وكذلك اكتشافه لها عبر الآخرين، وسنتابع- عبر النقلة من فصل لفصل وعبر العنوان - نقلة زمنية أخرى عبر ذات المقطع الخطابي، حيث يتم توظيف العنوانين الأول والثاني- الأيقونة الحجرية والصلاة أمام النصب – ليرسما أمامنا تحولات "أسوف" من قبلته إلى قبلة الوثنيين، و ستتم نقلة زمنية للماضي عبر تذكرات "أسوف" : "تذكر عندما جاء رجال مصلحة الآثار منذ سنوات...." [35].

إننا أمام نقلة مع تحديد زمنها؛ إن هذا الزمن سيحدد أمامنا من خلال سعته (صفحتين) وكذلك من خلال نهج التواتر، حيث ترسم أمامنا – عبر تحديد زمنه – تكرار حدوث أمر ما.

"منذ ذلك اليوم بدأ الزوَّار يتقاطرون على الوادي المنسي منذ آلاف السنين، يأتون جماعات بمعدّل كل أسبوعين، وأحياناً كل شهر وقليلاً ما يغيبون لأكثر من شهر. وكانوا جميعاً من الأجانب ...." [36].

إننا نلحظ عبر المقطع السابق كيف تمَّ تشخيص الأحداث فتواتر زيارة – فئة ما – للنصب يُراد لها أن تدفع الوعي الخفي لـ "أسوف" تم تسخيرها لغرض طرح مدى زمني طويل ضمن سعة نصية قصيرة جداً.

سنجد بعد تغطية فِعال الزوَّار السابقة ومقارنة النصراني بالمسلم، سنجد المكون الوثني أمامنا عبر أبيه كما يلي: "النصارى يقفون أمام العملاق المقنّع كما يقف المسلمون بين يدي الله. ولكن أباه قال إن الجنّي المقنع جدّه أيضاً"[37].

إننا كما نرى أمام ختام للمقطع الأول من خلال تشكل المفاهيم الداخلية لدى "أسوف" أمامنا عبر نصه، وعن النصارى الذين يزورونه وعن مفهوم العبادة.

القسم الثاني من أقسام الخطاب الروائي:

يبدأ من النقلة (8) حتى النقلة (15) في الجدولين السابقين.

وأزمنة الحكاية التي تتالى فيه هي ما يلي : (7 – 4أ – 1 – 4أ – 4ب– 4ج – 5أ – 7).

ينقسم القسم الثاني لمقاطع طويلة نسبياً مقارنة بالأول، إن الراوي يريد أن يؤسس أمامنا التباين بين "أسوف" و "قابيل". الانتقال يتم عبر فصل سريع لكي ننتقل بعد تأسس التلميحات للعنة التي تحف بـ"قابيل" الشمالي – كما أراده له الخطاب– إننا سنجد أن العناوين ذاتها هنا تحمل بعدها الخاص فزائر الغسق ترمز لـ"قابيل" وتأتي الإجابة عن ذلك المجهول في اسم الفصل الثاني: "شيطان اسمه الإنسان"!.

سنجد مقطعاً ذي سعة نصية طويلة نسبياً، ومدى سريع وهو المقطع الأول حيث ترسم أمامنا عبر الحوار الفوارق بين الشخصيتين المركزيتين في هذا العمل وهما "أسوف" و"قابيل"، "أسوف" بخجله وبساطته و"قابيل" بوحشيته وسلاحه ورفيقه الذي يتبعه.

سننتقل عبر الفصل التالي لتعاليم الأب التي يختلط فيها الإسلامي الصوفي مع الوثني، عبر أحاديث المساء وتحت القمر حيث يحدثه عن القلب ويعلمه سورة الإخلاص أو التوحيد، ثم العودة لزمن الحكاية الأول، حيث ترسم أمام الراوي لهم – عبر نهج التواتر الزمني – قصة تعكس تأسيساً يرغبه الراوي لما كانت عليه الأرض قبل هبوط الإنسان وعن الصراع الشمالي الجنوبي، الذي يتوازى مع صراع "أسوف" و"قابيل" سنلاحظ أن هذا المقطع ينتهي بحكمة أرادها الراوي – وخلفه الروائي – وهي عظمة الودان وهيبته، عبر العودة للقصة القديمة جداً التي سبقت نزول الإنسان على الأرض وكذلك من خلال إحساس "أسوف" بما حدث لوالده.

سنجد أمامنا قبل نهاية هذا المقطع التحولات التي حصلت لـ"أسوف" وهو بمفرده بعد موت أبيه، وبذلك ترسم أمامنا شيئاً فشيئاً شخصية "أسوف" وكيف يتعامل في خجل مع الناس.

يبدأ الفصل من خلال جملة مقطوعة تحكي عن علاقة خاصة كانت له مع الودّان ثم ننتقل "لأسوف" وهو يعيش عزلته.

الانتقالات تمَّ الكثير منها عن طريق نهاية الفصول وبعضها عبر السرد كما في النقلة لزمن الحكاية الأول.

القسم الثالث من أقسام الخطاب:

هو القسم الذي يبدأ من النقلة الزمنية رقم (15) وحتى النقلة الزمنية رقم (29) في الجدولين السابقين.

وأزمنة الحكاية التي تتالى فيه هي ما يلي: (7 – 5ب – 4أ – 4ج – 5ب – 5ب – 5ب – 5ج – 5ج – 5 ب – 5ج – 5ج – 7– 6ب – 7).

نلاحظ أن هذا المقطع مختلف تماماً في مدى مقاطعه وسعاته عن كل ما سبق أن رأينا من مقاطع سردية. تتسع هنا سعة السرد في مقابل صغر المدى الزمني للخطاب نسبياً، ذلك أننا أمام حالة أسطرة يؤسس فيها الراوي أمامنا وعبر شخصيته التي يختلقها لنا يؤسس أسطورة إنسية وما يحصل لها.

إننا في البداية في الحدث، وهو السقوط والخروج ثم التحول، ثم التطهير.

سقوط "أسوف" في قلب الحفرة، خروجه منها ثم تحوله وتطهير الأرض له من خلال موت أمه عبر الماء (المطر) سنجد في آخر هذا القسم وتسريعاً للسرد تغطية للمسافات، أن الراوي يقوم عن طريق تقنيتي التواتر والتلخيص، يقوم برسم المنطقة التالية لحدث موت أم "أسوف" وما تلاها، ونلاحظ أن حدث الموت تم رسمه من خلال سعة نصية طويلة نسبياً ومدى زمني قصير بحيث بدى الفرق بين "أسوف" و"قابيل" عبر المساحات النصية ومن خلال سعة حضور كلاً منهما يشبه عملية تحولات "أسوف" وسقوطه في الهاوية وخروجه،

سينتهي هذا المقطع من خلال العودة للقاء "أسوف" و"قابيل"، هذا الحدث ضمن زمن الحكاية السابع الذي يتنامى وهو يؤطر الخطاب.

القسم الرابع من أقسام الخطاب:

هو الذي يبدأ من النقلة رقم (29) وينتهي عند النقلة رقم (34) في الجدولين السابقين. وأزمنة الحكاية التي تتالى فيه هي ما يلي : (7– 6أ – 6ب – 6ج – 6ج – 7).

في المقطع الرابع نتابع تشكيل شخصية "قابيل" أمامنا ويبث أمامنا ما يعرف في السيرة الشعبية بالدعوى يستخدم الراوي هنا نهج التلخيص لكي يرسم أمامنا وبسرعة صورة "قابيل" ونشوءه.

إننا من خلال عودة زمنية واحدة، وهو استرجاع خارجي، سنجد أمامنا تشكل حكاية "قابيل" التي بلا شك مفصولة عن باقي الحكايات وهو ما سنراه عند تفحص بنية حكاية هذه الرواية، في جانب الحكاية من هذا الكتاب.

من حيث المدى والسعة هنا في سعة قصيرة يتم تغطية سنوات طويلة عبر تقنية التلخيص الزمني، وسنعود في آخر هذه المجموعة لنتابع تبطئة الزمن عبر الحوار من خلال بدايات التوتر بين "أسوف" و"قابيل"، حيث تلقى اللعنة القديمة، التي تفوه بها العرّاف في طفولة "قابيل" على لسان "أسوف". يستخدم الروائي كما سنرى أسلوب الانتقال عن طريق التقسيم لفصول مع بداية كل فصل بجملة تعكس بعداً زمنياً يتم من خلاله الانتقال.

القسم الخامس من أقسام الخطاب:

يبدأ هذا القسم من النقلة الزمنية رقم (34) ويستمر حتى النهاية عند النقلة رقم (43) في الجدولين السابقين.

وأزمنة الحكاية التي تتالى فيه هي ما يلي: (7 – 6د – 6أ – 6ب – 6ب–6ج – 6د – 6د – 6د – 7).

عبر نقلة زمنية جديدة استرجاع خارجي، تتم العودة الزمنية لمرة واحدة – كالعادة– ومنها يقوم الراوي بطرح مكون حكاية "قابيل"، بعد أن تم تصويره أمامنا فيما سبق، نحن

هنا أمام قصة الغزالة. يبطئ الراوي السرد ليترك الفرصة عبر المشهد لرفع التوتر، والمزيد من فِعل الأسطورة العكسية لذات "قابيل"، سنجد السرد يسرع عند ظهور شخصية "جون باركر"، إن هذا المقطع يجهزنا لنتعرف عبره عن المكون اللاهوتي "لجون باركر"، ونتابع تناقضات ذاته سيعود السرد بطيئاً عندما ننتقل لتفاعل "جون باركر" مع المفاهيم الحلولية عبر شيوخ القادرية الذين اختارهم الراوي ليطرح رؤيته منهم ليؤسس عبر كل ذلك لمفهوم قريب من مفهوم النصارى عن صلب المسيح، عبر تحويلة الشرك المعروفة.

سننتقل بعد تأسيس الروائي للمفاهيم السابقة وبواسطة السرد إلى مشهد آخر، حيث يقوم "قابيل" بقتل الأخت، سنجد اعتماد المشهد هنا للمزيد من رفع الدراما والتوتر ضمن الخطاب، النقلات تتم كلها عبر الفصول الجديدة والعناوين التي تحيل لداخل الخطاب، السعة هنا طويلة والسرد يسير بنفس الترتيب السابق للأمام، ثم سنتابع قصة أكل لحم الودان في المقطع التالي حيث يتم عبر المشهد طرح مكون جديد وهو قدسية الودان ولعنة من يأكله، في المقطع ما قبل الأخير (فصل الرؤيا) نتابع عبر الرؤيا تمهيد، أو دعوى نصية سابقة لسفر "أسوف". إنها المرحلة السابقة للزمن الأخير (7) الذي يؤطر الخطاب الكلي. وهي كدعوى نصية تطرح المزيد من التوتر على الخطاب.

المقطع الأخير في الرواية يأتي عبر المشهد أيضاً، ومن خلاله تستعاد أمامنا صورة الصلب – التي يتصورها النصارى– كما تمت استعادة قصة "هابيل" و"قابيل" وقصة الودان والكاهن.

جماليات التلاعب الزمني:

الترتيب: استخدام الروائي الحاضر كزمن لبداية الرواية. إن هذا الحاضر السردي هو زمن الستينات – عند وجود القواعد– وأخذ يؤسس روايته كما رأينا من خلال المقاطع السابقة عبر الاسترجاع الخارجي، وأخذت النقلات في كل مقطع تتباين حيث تمَّ عبر وعي "أسوف" وعبر المناصات طرح جذور الحكايات المركزية الثلاثة وهي كما يلي:

أ – حكاية "هابيل" و"قابيل". المتكررة.

ب– حكاية النصب الوثني. المتكررة.

ج– حكاية صلب المسيح بمفهومها النصراني. المتكررة.

ويؤطر هذا كله صراع المناطق الذي يبرز الراوي عبره عظمة الجنوبي الأسمر مقابل الشمالي الأبيض، وعبر كل ذلك كان المؤطر للسرد هو زمن الحاضر حيث يتنامى السرد وتتم عملية الصلب لـ "أسوف"، من خلال متابعتنا نرى أن الاسترجاع الداخلي غاب تقريباً بالكامل. بينما سنجد لوناً متميزاً من الاستباقات. حيث وظف الراوي عبر ما يعرف سابقاً بالدعوى النصية، وظّف الدعوى النصية ليطرح استباقاً لحدث قادم وتمَّ ذلك في مرات عديدة عن طريق الحلم كما في الرؤيا في آخر النص، أو عن طريق مقولات العارفين كما في سيرة "قابيل"، أو عن طريق المناص كما في قصة "هابيل" و"قابيل" القديمة، كما نجدها أحياناً عن طريق التلميح الخفي الذي لا يكاد يدرك كما في تلميحات شيخ القادرية "لجون باركر" عن مفاهيمه الحلولية، والترميز بشكل مبطن لـ "أسوف" ليتحول حسب النص لما يشبه "المسيح" لدى النصارى، وهو ما يمثل استباقاً مبطناً لقصة الصلب النهائية.

وانظر هنا لمفاهيم الزمن التي اختير لها "جون باركر" ليطرحها:

"إن سعى الإنسان للوصول لمرتبة الإله لن يتحقق إلا إذا بمرحل بمرحلة الحيوان، يعتزل حتى يستوحش يخرس حتى يفقد القدرة على النطق، يقتات على العشب حتى ينسى طعم الطعام"[38].

إن هذا مع رؤية الحلول التي نسبها الروائي للقادرية وتشبيههم بالبوذية يطرح مكون استباقي وهو "أسوف" مقدس مثل مسيح النصارى. وبذلك يتم الترميز لحالة الصلب النصرانية في نهاية العمل.

المدى والسعة والسرعة والإبطاء:

وظف الروائي عبر ما رأينا من جدول المدى والسعة، وظف التواتر غالباً ليرسم صورة متكاملة عن ماضي "أسوف" في أضيق مساحة نصية، كما وظفه أيضاً ليرسم تواتر الأفعال السيئة التي يمارسها "قابيل"، يضاف إلى نهج التواتر المستخدم مع "أسوف"، سنجد الوصف الذي يعكس من خلاله الروائي مكون "أسوف" الداخلي ورؤيته لكل الأشياء التي تحيط به. وكان ذلك غالباً في بداية الرواية.

سنجد أن التلخيص يستخدم غالباً مع قابيل ليطرح وبسرعة حكايته، إن عدم الاهتمام هذا يؤشر بلا شك لموقف الروائي من الشخصية، حيث يتم من خلال سعة نصية صغيرة اجتياز مدى زمني طويل المشهد (إبطاء السرد).

سنجد نوعين من المشاهد في الرواية:

- النوع الأول: مشهد يتكون من الوصف وحوار الراوي الداخلي للشخصية أمامنا (كمروي لهم)، ولقد استخدمت هذه المشهدية مع "أسوف" عند سقوطه في الهاوية. كما في النقلة رقم (19، 20، 21) حيث نتابع ما يحصل لـ "أسوف".
- النوع الثاني من المشاهد: هي تلك المشاهد التي يلتقي فيها "أسوف" مع "قابيل"، التي يستخدم فيها الحوار والوصف في مناطق بين الحوار، والوصف يتم عبر مكون "أسوف" الداخلي ورؤيته التي ستتبدل شيئاً فشيئاً نحو "قابيل" وهي تخص زمن الحاضر الروائي أو الزمن رقم (7) حسب زمن الحكاية.
- النوع الثالث من المشاهد: وهي التي استخدمت في المقطع الخامس من مقاطع الخطاب (بعد صفحة 109) هي مقاطع تم تبطئه السرد فيها عن طريق مشهد يختلط فيه الحوار مع السرد مع الوصف وكانت باستمرار قوي فعل رافعة لدراما النص تتحرك داخله.

الحذف:

الحذف في الرواية كان تلقائياً نتيجة لاختيار الروائي لأزمنة محددة رسم عبرها ماضي وحاضر فواعل روايته، فنجد الانتقاء لأزمنة تاريخية قديمة ثم بداية الرواية مع بداية القرن واختيار الروائي لما يناسب شخصياته من أزمنة.

عن المدى والسعة:

تحرك "إبراهيم الكوني" في روايته هنا في حدود وكان انتقائياً – كما سبق أن تحدثنا – أي أنه كان ينتقي الأزمنة التي تتناسب مع شخوصه وفواعله وكانت مقاطعة الانتقالية ذات سعات نصية في أغلبها متوسطة، حيث لم نجد تلك الانتقالات الزمنية السريعة التي تميز تلك الروايات التي تعتمد على التشويش، فروايته وحسب ما بنى هو حكايته لا تحتاج لذلك النوع

من الحركات السردية، وسنجد المدى في الرواية يتغير فمن حكاية تلخص قرون في سعة قدرها نصف صفحة كما في زمن الحكاية رقم (1) والموجود في النقلة رقم (10) سنجد ساعة يتم استخدام مساحة نصية كبيرة لها كما في مشهد قتل أسوف وكذلك مشهد سقوطه في الهاوية في المقطع (19، 20).

منطق النقلات السردية:

استخدم إبراهيم الكوني في عمليات انتقاله باستمرار ما يلي: بدايات الفصول التي كانت أغلبها ذات سعات قصيرة، وكان يحدث الشد من خلال العناوين الموجهة للخطاب والمشتغلة داخله أمام المروي لهم، وكذلك استخدام نهج الترهين الذي يميز الرواية الحديثة – بما يحدثه نهج الترهين – من رفع لنسق التلقي وتحول المادة المحكية نتيجة لحضور فضاءاتها قابلة أكثر للتذكر.

1- انتقال الراوي بالمروي لهم من خلال اكتشافات الشخصية وما يتكون لديها من مفاهيم.

2- النفي كمدخل للانتقال الزمني كما في مقطع (4).

3- تفعيل الراوي لعلاقته مع المروي لهم، وهو يحكي لهم. منها النقلة رقم (9) حيث يحدثهم عن (يطيب للوالد أن يحكى له) وغيرها من أساليب الحكي المعهودة.

4- الترهين الزمني: حيث عن طريق تحديد حدث يرتبط بزمن يتم الانتقال، نتابع هذه النقلة الزمنية: (انتظر حتى هل القمر وحكي له)[39].

وهو هنا مستخدم في أغلب النقلات الزمنية لنتابع هنا أيضاً "لم يعد الرفيقان إلاّ في صباح اليوم التالي"[40]، وكذلك لنتابع بداية قصة "قابيل" فبعد العنوان اللقيط سنجد ما يلي: "قصته مع اللحم بدأت منذ الرضاعة"[41].

خلاصة:

من كل ما سبق ندرك قدرة الروائي المتميزة سردياً التي مكنته من أن يخفي كل بذور القطائع التي زرعها داخل لحمة المجتمع الواقعي ضمن نسيجه النصي ومكنته أيضاً من طرح

موقفه المعلن من بني قبيلته الذين أسطرهم، وموقفه أيضاً من غيرهم الذين همشهم وحولهم لمصدر للخراب واللعنة ولقطاء.

كما نجح عبر تأطير زمن الحكاية النهائي للخطاب الروائي -وكذلك تناوبه واختلافه عن النسق الأخر من السرد- نجح في خلق عمل روائي متكامل مليء بالرموز الداخلية التي بلا شك تهمه ويدرك هو قيمتها.

ووظف الراوي بإتقان تقنيات الإبطاء (وصف - مشهد)، وتقنيات التسريع (تلخيص - حذف) مع تقنية التواتر، وظفها كلها مع اعتدال في مدى وسعة خطابه السردي، لم تكن النقلات الزمنية كبيرة حيث اعتمد على كسر الخطاب ثم الانتقال خطياً لتغطية جزء من الحكاية ثم العودة لنقطة الصفر ومنها يتم كسر الخطية لمرة واحدة ثم يستمر الخط زمنياً منتظماً وهكذا.

هوامش الفصل الثالث:

(1) إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، 1993م، تاسيلي للطباعة والنشر، ط.3.

(2) نزيف الحجر، ص26.

(3) نزيف الحجر، ص27.

(4) نزيف الحجر، ص5.

(5) نزيف الحجر، ص8.

(6) نزيف الحجر، ص49.

(7) نزيف الحجر، ص25.

(8) نزيف الحجر، ص20.

(9) نزيف الحجر، ص75.

(10) نزيف الحجر: ص91.

(11) سعيد يقطين، قال الراوي، المركز الثقافي العربي، ط.1، ص.38 (حيث يقسم بنية الحدث في السيرة الشعبة العربية لـ(دعوى،قرار، أوان، نفاذ) وتمثل الدعوى عملية استكناه للمستقبل من خلال شخصية خاصة (ذات بعد روحي) وهو ما يشبه العراف سابق الذكر هنا في الرواية).

(12) نزيف الحجر، ص92.

(13) نزيف الحجر، ص130.

(14) نزيف الحجر، ص9. "هل أجدادنا القدماء جن؟، يقول "أسوف". فتبتسم الأم ولا ترد، في إيحاء لحالة قريبة من التشابه بين الإنس والجن".

(15) نزيف الحجر، ص7. (سندرك فيما بعد أن المقصود بالسيارة هي سيارة "قابيل" حيث سيلتقيه "أسوف" في الفصل الثالث).

(16) نزيف الحجر، ص8.

(17) نقصد بالتأطير ربط زمن معين بحدث معين، كما فعل والد "أسوف" عندما: "انتظر حتى هل القمر وحكي له ..."، إن الراوي هنا وعبر الترهين يمارس حالة إعداد للمروي لهم لتقبل السرد القادم والمنقول من قبله على لسان والد "أسوف". وهذا النوع من الترهين هو ترهين على مستوى المؤشر أو على المستوى السطحي من السرد.

(18) نزيف الحجر، ص31.

(19) نزيف الحجر، ص41.

(20) نزيف الحجر، ص45.

(21) نزيف الحجر، ص53.

(22) نزيف الحجر، ص71.

(23) نزيف الحجر، ص75.

(24) نزيف الحجر، ص77.

(25) نزيف الحجر، ص79.

(26) نزيف الحجر، ص83.

(27) نزيف الحجر، ص85.

(28) نزيف الحجر، ص91.

(29) نزيف الحجر، ص96.

(30) نزيف الحجر، ص105.

(31) نزيف الحجر، ص110.

(32) نزيف الحجر، ص131.

(33) نزيف الحجر، ص143.

(34) نزيف الحجر، ص8.

(35) نزيف الحجر، ص35.

(36) نزيف الحجر، ص15.

(37) نزيف الحجر، ص15.

(38) نزيف الحجر، ص116.

(39) نزيف الحجر، ص26.

(40) نزيف الحجر، ص41.

(41) نزيف الحجر، ص91.